

دور اللغة في عملية التواصل والاتصال

The role of language in communication and communication

درقام الزهرة*

جامعة وهران 2 محمد بن احمد/ الجزائر (zohra.philo@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2019/08/29 ؛ تاريخ القبول : 2019/11/26 ؛ تاريخ النشر : 2019 /11/ 30

Abstract

المخلص

Not surprisingly, communication is the most central concept in contemporary German sociology. For Habermas and Niklas Luhmann, it represents a paradigm shift, or a communicative shift, meaning that the concept of communication has become necessary in order to describe and dissect the social structure, where language represents the highest forms of communication and communication. Roman Jakobson attributed to it six basic functions that summarize the levels of communication. and conversational, and the levels of practice, which are: the fonction expressive, the referential function, the fonction référentielle, the fonction conative, the poetic fonction poétique, the post-linguistic function fonction métalinguistique; The communicative mind is an activity that transcends the egocentric mind and the closed, holistic mind.

Keywords : communication - language - deliberation - communication - criticism - reason – ethics

لا غرو أن التواصل هو المفهوم الأكثر مركزية في علم الاجتماع الألماني المعاصر. إنه يمثل بالنسبة إلى هابرماس ونيكلاس لوهمان نقلة براديجمية، أو نقلة تواصلية، يعني ذلك أن مفهوم التواصل أصبح ضروريا من أجل وصف وتشريح البناء الاجتماعي، حيث اللغة تمثل أرقى أنواع التخاطب والتواصل، فقد عزا إليها رومان ياكوبسون R.Jakobson ست وظائف أساسية تلخص مستويات التواصل والتخاطب، ومستويات الممارسة وهي: الوظيفة التعبيرية fonction expressive، الوظيفة المرجعية، fonction référentielle، الوظيفة التأثيرية fonction conative، الوظيفة الشعرية fonction poétique، الوظيفة ما بعد اللغوي fonction métalinguistique؛ والعقل التواصل هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات والعقل الشمولي المغلق.

الكلمات المفتاحية: التواصل – اللغة – التداولية – الاتصال – النقد – العقل – الأخلاق

مقدمة

اللغة تمثل أرقى أنواع التخاطب والتواصل، فقد عزا إليها رومان ياكبسون R jakobson فاللغة وسيلة للتواصل بين الأفراد على نظام الحوار المستند إلى أدلة وحجج عقلية... فالعقل التواصلي هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات والعقل الشمولي المنغلق، فهو أكثر كفاءة وحادثة فالنشاط الاتصالي يسعى الى وضع شروط فاللغة وسيلة للتواصل بين الأفراد على نظام الحوار المستند إلى أدلة وحجج عقلية... فالعقل التواصلي هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات والعقل الشمولي المنغلق، فهو أكثر كفاءة وحادثة فالنشاط الاتصالي يسعى الى وضع شروط فاللغة وسيلة للتواصل بين الأفراد على نظام الحوار المستند إلى أدلة وحجج عقلية... فالعقل التواصلي هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات والعقل الشمولي المنغلق، فهو أكثر كفاءة وحادثة فالنشاط الاتصالي يسعى الى وضع شروط النشاط التواصلي طريقا لانفلات من فلسفة الذات والتحرر، وتجاوز للتصورات التقليدية للعالم، أن اللغة تمثل أرقى أنواع التخاطب والتواصل، فقد عزا إليها رومان ياكبسون R jakobson ست وظائف أساسية تلخص مستويات التواصل والتخاطب، ومستويات الممارسة وهي: الوظيفة التعبيرية، fonction expressive الوظيفة المرجعية، fonction référentielle، الوظيفة التأثيرية fonction conative، الوظيفة الشعرية fonction poétique، الوظيفة مابعد اللغوية fonction metalinguistique. يعد الفعل التواصلي من ضروريات التفكير في الوجود معا أو في "نحن"، ويتضمن فعل التواصل الإبلاغ والتخاطب، حيث يمكن النظر إليه في أفق إشكالية الحقيقة ومن منظور إيتيكا العيش معا، وهو بذلك منخرط في خطابات التواصل الاجتماعي، ، وعليه كيف يمكن للغة أن تحقق التواصل ؟، وما هي الأبعاد الإيتيقية التي تجعل منه مقبولا ضمن الخطاب الاجتماعي؟

وإذا كانت اللغة على حد تعبير إدوارد سابير: ليست تعبير وقول : "إنها بنية التي تتحكم في التعبير وتضفي عليه نماذجها"،¹ فالظاهرة اللغوية تتكون من الصوت اللغوي تتضمن جوانب مختلفة ومركبة من النطق والصوت والسمع وهذه العناصر الحسية ترتبط ما هويًا بقدرة مجردة. «لبيان أن اللغة لا يمكن أن تكون إلا منظومة من قيم مجردة يكفي الأخذ في الحسبان اعتبار العنصرين الذين يشاركان في وظيفتها وهما " الأفكار والاصوات ويمكن تشبيه اللغة بورقة يمثل الفكر وجهها الأول والصوت وجهها الآخر"² جعل هابرماس من سؤال والتواصل هاجسه المركزي ومن نظرية النشاط التواصلية طريقًا لانفلات من فلسفة الذات، وتجاوز للتصورات التقليدية للعالم، ومن ذلك من خلال تفعيل النقد الذاتي وفي الاستخدام الحر للعقل، إن فلاسفة النظرية النقدية حاولوا أن يستحدثوا وسائل تغيير تفكير الإنسان، وساهموا في مقارنة عدة مجالات من نقد السلطة، والكشف عن آليات السيطرة في الثقافة، نقد المشروع التوتاليتاري، مناهضة الميتافيزيقا، فهم الراهن، الانخراط في الحركة التاريخية، الابتعاد عن النسقية وإعطاء للفلسفة معنى مغاير لكل إرادة كلياينة. كيف يحقق التواصل التفاعل مع الغير في إطار من الشفافية؟ وكيف يتجرد من هاجس الهوية والانغلاق على الذات بخلق جسور التفاعل بواسطة سنن ورموز لغوية؟

العرض:

1- اللغة والتواصل³ الفرق بين الحجاج والتواصل

إن أهمية اللغة تكمن في أن الإنسان أودع فيها عالما خاصا بيه ولا تتجلى حقيقته إلا من خلال تواصله مع الآخرين، فالتواصل هو تعميم الشيء واكتشاف الآخر والاقتراب منه والاهتمام بانشغالاته. "إذا رجعنا إلى القاموس نجد أن التواصل لينتقل شيء من موضع إلى آخر، وهذا الشيء قد يكون رسالة أو رمزا أو معنى"³ فهل هناك ضوابط للحوار والتواصل؟

¹ عمر مهبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر ديوان المطبوعات الجامعية ط2 1993 ص21

² نفس المرجع، ص21

³ محمد عابد الجابري، في غمار السياسة، فكري وممارسة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،

إن التواصل لامس كل الحقول المعرفية لنقل الأخبار ولتحقيق التخاطب بين الأفراد ويريكارتون " إن التواصل هو جعل الشيء مشتركاً أي الانتقال من حالة فردية إلى حالة جماعية"5 انخرط الانسان في الحياة الاجتماعية. فالتواصل هو إمكانية التفاعل بصدق عن مقاصدنا ونوايانا بحجج معقولة وواقعية .: مادامت رسائل التواصل غير بريئة ... نمثل إيتقا المناقشة حسب ها برماس شكلا من أشكال التحرر من التشويه والوقاية منه وهي تهدف الوصول إلى أخلاقيات الحوار والفهم المشترك. إن الهيمنة وصراع المصالح تتم على أرضية العلامات والأشكال المتعددة للتعبير....وفق تقاليد يزيل المسافات الإيديولوجية. اذن ماهي الحجاج وشروطه وغاياته؟

أعلن ها برماس من أهمية اللغة وخاصة مستند على الحجة القوية والقائمة على أسس الاقتناع للفعل والتأثير في الآخر. لم يعد التواصل يهتم بتصورات الخطاب دون المقام .(إن مبدأ الحجاج هو إيتقي وهدفه بلوغ الإجماع، ودفع المشاركين في المناقشة العملية ... لتوضيح الأنوار المناطة بهم، والحرص على الفهم البنياداتي. إن اللغة التواصلية في تصوره تتوقف على شروط الفهم والأخلاق والتعقل .

ساهم هابرماس في وضع قواعد ولغة وحياة مشتركة عادلة ووحيدة للجميع مرتبطة لفهم مسبق عن موضوع الحجاج سواء بالنسبة للمرسل أو الخصم فاللغة التي يجري بها الحجاج تعمل القبول لديه ومن هنا فإن هابرماس يجعل الحجاج آلية للبرهنة أو النقد للأطروحة قيد المحاجة، فكل شيء في عملية الحجاج يرتبط بالفهم والاتفاق والمشاركة .

دافع هابرماس عن التواصل ودوره في التحولات السياسية والفكرية العلمية، غير أن الإنسان في هذا العصر أصبح التكنولوجيا مشحون بالحروب والكوارث زعزعت الإيمان بالقيم والمبادئ الذي دعا إليها مشروع التواصل، فظهرت فلسفات متشائمة حول المسار التاريخي للتقدم، فلقد قدمت فلسفات ما بعد الحداثة البنيوية والتفكيكية نقدا جذريا للعقل والتقدم واتهمت الأنوار بالإفلاس، تقلص مفهوم المطلق، الوثوق، تعدد الدلالات، نسبية المصالح. التحرر، وهذا ما جعل

هابرماس يؤسس لفلسفة نقدية لما بعد الحداثة "...إن هابرماس تعرض في مشروعه الفلسفي، الذي جعل من سؤال الحداثة والتواصل هاجسه المركزي، ومن نظرية النشاط التواصلية مسلكا للانفلات من فلسفة الذات والتحرر من عقلانية المؤسسات الحديثة، انه مجال عمومي يسجن الجسد داخل نسق وعقلانية صارمة...⁴، وهذا من خلال نقده ل**فوكو هيدجر** و**جاك دريدا** الذي عملوا على نقد العقلنة دون تمييز، بين ما هو صالح لتحرير الإنسان وما هو أداتي، يتحالف مع السلطة والنظام يحاصر الفرد، والذي فقد للإنسان هويته، ؟، وما هي الآفاق النقدية لمشروع **هابرماس**؟ وماهي آليات التواصل اللغوي؟

2- التكنولوجيا ودورها في تقليص المسافات بين المتحاورين

كشف **هابرماس** على مكونات الخطاب الكلاسيكي بنقده لها كون الوضعية التجريبية المؤسسة على العقلانية تعتبر نفسها المسلك الوحيد لفهم العالم، وتحدد نشاط الإنسان من خلاله، حيث كل نمط معرفي يخضع لتوجيه مصلحة خاصة، ويتساءل **هابرماس** لماذا تعمل العلوم الحديثة على تجاهل عالم الإنسان؟ إن وفرة الخيارات والمعارف والاتجاهات أدى إلى تحرير الإنسان، ولكن بريق ما بعد الحداثة أفقده قيمته، فأصبح سجين اللذة والرغبة والاستهلاك والرفاهية والإعلام بكل أشكاله وأطيافه، والعولمة التي حولته إلى عبد يستهلك منتجاتها الرمزية والمادية والروحية، فأصبحت أساس مجتمعات الوفرة والاستهلاك.

حسب إن "... القيمة التحريرية للإنسان تخلصه من آلية السيطرة، التي تسكن المعرفة العلمية التي بدأت بالسيطرة على الطبيعة لتنتقل السيطرة على الإنسان وعليه فإن القدرة النقدية يمكن للإنسان فهم ذاته...⁵، اهتم **هابرماس** بإشكالية المعرفة والمصلحة، "...في سياق تستدعي فيه الحداثة التقنية نوعا من التماهي بين المعرفة والسلطة، بين الفكر ومختلف المصالح التي تعبر عن

⁴ آفاه نور الدين، المرجع السابق، ص 10.

⁵ المحمداوي علي عبود، الدكتور اسماعيل مهنانة، مدرسة فرانكفورت النقدية، ص 222.

المجتمع الحديث...⁶، يدعو هابرماس إلى التسلح بروح نقدية وتعقل الواقع والابتعاد التجريد، وتوجه نحو العالم المتعیش وتجديد علاقته مع إنسان الراهن من خلال الممارسة الفعلية للتواصل بين الذات وسط عالم موضوعي، "...المصالح تلك التوجهات الأساسية التي تلازم شروط أساسية معينة لإعادة الإنتاج ولتأسيس ذاته للنوع البشري وتحديد العمل والتفاعل بين الذات...⁷"، وهو رهان الأساسي للتواصل.

تتمثل دعوة هابرماس في إعادة تجديد وإرساء معقولية تستدعي المصلحة "...المصلحة هي الرضي الذي يربطنا مع تصور وجود موضوع ما أو وجود فعل ما، وهي تهدف إلى الكينونة، لأنها تعبر عن علاقة الموضوع المعني بمقدرتنا على التمني، المصلحة أما أنها تشترط مسبقا احتياجا ما، أو أنها تنتج احتياجا ما...⁸.

ربط هابرماس المعرفة بالمصلحة ضمن أنماط معينة، ما نتج عنه أنه "...في مقابل العالم الطبيعي ينتج الفعل الأداتي؛ في مقابل العلوم الاجتماعية تتجلى فعاليتين: الفاعلية الإستراتيجية الفاعلية التواصلية، وفي مقابل عالم الذات تنتج فاعلية التأمل والتحرر...⁹"، وبذلك فإن العلم الوضعي ينتج عقلا ذاتيا حسابيا ينبغي التنبه له وإبقائه ضمن حدود ما هو مادي، أما مجال التأمل، فإنه ينمي فعاليات الذات التحررية.. فنقل هابرماس مشروعه من المعرفة إلى الإتيقا.

دمج هابرماس هذه المجالات، مجال الواقعية الموضوعية العلمية، مجال المعايير والمشروعية الأخلاقية، مجال القيم والمعايير الجمالية، فأعاد صياغة العقلانية ليؤكد على النشاط التواصلية، "... بنى هابرماس الإرث الكانطي الجديد الذي يأخذ شكل التوزيع الثلاثي لأصناف المعقولية ودوائرها: المعرفة الأداتية والعملية، الأخلاقية والجمالية التعبيرية، وسعى إلى توحيد هذه

⁶ أفاية نور الدين، المرجع السابق، ص 56.

⁷ هابرماس يورغن، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، منشورات الجمل، ط 1، 2001، ص 230.

⁸ المرجع نفسه، ص 232.

⁹ المحمداوي علي عبود واسماعيل مهنانة، المرجع السابق، ص 223.

المجالات إلى ما يمثل أساس المعقولية نفسها وهو التواصل...¹⁰، لذلك باعتباره أن الإنسان كائن تواصل، سعى إلى تكوين فكر نقدي تنويري بوعيه لحاضره وراهنه، فجمع بين اللغة والتحليل النفسي والتأويل لكي يمكن من التواصل.

حاول هابرماس تطوير التنوير بالمزيد من المناقشة العقلية، وذلك بتعميق الوعي بالحادثة "...وعي الحادثة تخلق معاييرها من ذاتها، الوعي بالمرحلة التاريخية، بحث هابرماس

عن المضمون المعياري للحادثة داخل عالم تتجاذبه نوعان من إرادة القوة: (1) إرادة التحرر، (2) إرادة السلطة، إن الحروب التي عرفتها البشرية تركت الإنسان يعيش بلا أوهام بدون نصوص سردية كبرى...¹¹، حيث ان فقدان الثقة في الحادثة ترك خلفه فراغا رهيبا.

يدافع هابرماس عن الحادثة ويعتبره مشروع لم يكتمل، فالحادثة أسست لحضارة إنسانية مدركة وعيها بالزمن ولهذا وظف النقد كأداة إجرائية في التفكير، وانتقد العقل الذي تحول على عقل الأدوات متمركز في الفكر الغربي، مستنبطاً عقلاً تواصلياً "...في إطار العقلانية التواصلية هي الكفيلة بوأد الهوية السحيقة التي تفضل عالمنا والأنساق...¹²، حيث أعادت الفلسفة حساباتها من خلال اختراقها للمرجعيات لقيام مشروع تواصلي، "...إن عملية التحديث تقتض العقلنة، وأخلاق تواصلية التداوليات الكلية، حيث التبادل المتكافئ ومواجهة الحجة بالحجة، أن هابرماس يؤطر مشروعه ضمن الدعوة إلى إعادة الاعتبار لنوع من العقل العملي، يسترشد بأخلاق تواصلية لا تقتض بواسطة سلطة...¹³، فبإمكان التطور أن يطبق على العالم المعيش ويدمج في سياق من الممارسات بين الناس.

¹⁰ حمدي أبو النور، يورغن هابرماس، الأخلاق والتواصل، السوبر للطباعة والنشر والتوزيع، 2012، ص 86.

¹¹ المرجع نفسه، ص 86.

¹² المحمداوي علي عبود وإسماعيل مهنا، المرجع السابق، ص 227.

¹³ أفاية نور الدين، المرجع السابق ص 179.

3- العولمة والتواصل

تساءل هابرماس عن سبب عزوف العلوم الحديثة عن فهم الإنسان، فجعل من التواصل حاجسه النظري والعملي، خاصة في مرحلة غياب الأفق الكوني، فالحداثة دعوة لتجديد مفاهيم الماضي ومناهضة سعيا إلى تأسيس قواعد خاصة لما هو جديد، "...فاللغة وسيلة للتواصل بين الأفراد على نظام الحوار المستند إلى أدلة وحجج عقلية... فالعقل التواصلية هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات والعقل الشمولي المغلق، فهو أكثر كفاءة وحداثة فالنشاط الاتصالي يسعى الى وضع شروط المجتمع الممكن..."¹⁴، حيث يعتبر نقد العقل الأذاتي مفتاح بناء عقل تواصلية مفتوح على المعيش وفعال ضمن فضاء بين ذاتي تفاعلي.

خلق الزمن الراهن للإنسان قنوات الاتصال في ظل العولمة، فأصبحت الحداثة مرادفة للتواصل، وأصبح بإمكانها الانتشار في كل مكان مع مختلف المرجعيات الثقافية، "...إن التجربة التواصلية تأتي من العلاقة التفاعلية بين الأشخاص داخل العالم المعيش وفي إطار من التوافق اللغوي والتفاوتي، ومن ثمة فإن كل فاعل يملك القدرة على الكلام والفعل يمكنه أن يشارك في التواصل، وأن يعلن عن ادعاءاته للصلاحيات لكن شريطة أن يراعي مقاييس المعقولة والحقيقة..."¹⁵، لقد اقتحم هابرماس ميدان التواصل استجابة لمتطلبات الإنسان الانواري الذي انقرضت في عصره قيم الحق، الخير والجمال أي إلى فراغ أخلاقي.

قامت فلسفة ما بعد الحداثة على قيم برغماتية، حيث أصبح الأفراد ذرات مستقلة لا تربطها إلا الحاجة والمصلحة، فانتصرت الحرية الفردية داخل فضاء الوجود الإنساني، وأصبح الكلام هو التفصيل الدلالي لمفهومية الكينونة في العالم، يؤكد هابرماس على قضية التواصل، فأعاد صياغة العقلانية في كونها نشاط تواصلية تبرهن عليه ذوات قادرة على الكلام، و"...تأسيس نظرية عقلانية،

¹⁴ حمدي أبو النور، المرجع السابق، ص 135.

¹⁵ أفاية نور الدين، المرجع السابق، ص 196.

انجاز عقل تواصلتي يتجاوز الذات ليكون نسيجا من الذوات المتواصلة التي تتجاوز ذاتيتها، إن اللغة تمكنا من إحداث قطيعة من أطروحات تقليدية...¹⁶، إن فلسفة الذات استنفذت كل طاقتها وعلينا إدراج مسألة التفاهم والتواصل، ولقد تأثر هابرماس بأعمال اللغويين كل من جون أوستين Austin وجون سيرل Searl في نظرية أفعال الكلام التي تجمع بين الدلالة والتركيب والتداول.

يحاول هابرماس التحرر من فلسفة الوعي عبر التنظير للعقلانية التواصلية، والتي تقوم على التفرقة بين مجالات المعرفة وشروط حصول مصالحها وفضاءاتها الخاصة بها، العالم الموضوعي، العالم الاجتماعي، العالم الذاتي، "...إن التفسيرات المعرفية، والتوقعات الأخلاقية وأشكال التعبير والتقييم، لا تستغني خلال التواصل اليومي عن أن تتداخل وتتفاعل، وللوصول إلى فهم العالم المعيش يتطلب تراث حضاري يتخلل المنظور كله...¹⁷، إن التواصل في معناه العميق هو استحضار للتراث وتفاعل بين معطيات الذوات ضمن إطار من الاحترام والمعقولة، وهذا يتطلب تعينا لميادين المتحاورين "... إحداها كطبيعة موضوعية عندما تعتمد الموقف الافتراضي الملاحظ، والثاني كحقيقة اجتماعية معيارية عندما تعتمد الموقف الإنجازي لطرف ما في التفاعل، والثالث كطبيعة ذاتية لمن تعتمد الموقف التعبيري... هذه الضرورات الصلاحية (الحقيقة والصحة والواقعية) والتي تجعلها مقترنة ضمنا بكل فعل لغوي...¹⁸، يتطلب التواصل ضرورة إرساء معقولة وتبرير الصحة.

ينتج الفعل الأداتي، في مقابل العالم الطبيعي، الذي أصبح معه العقل وهو إنتاج السيطرة على الموضوع، والهيمنة عليه وذلك عبر التقنية، "...فالعالم الحديث لم يعد مجرد تأمل الكينونة بل أصبح خاضعا للأساليب التقنية، ينظر هيدجر إلى التقنية كأنها ميتافيزيقا جديدة مرتبطة بإرادة القوة...¹⁹، فالميتافيزيقا والتقنية يمكن فيها انطلاقا من انسحاب الكينونة، "...إن هابرماس انتقد

¹⁶ حمدي أبو النور، المرجع السابق، ص 143.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 190.

¹⁸ المحمداوي علي عبود، إسماعيل مهنا، مدرسة فرانكفورت، ص 45.

¹⁹ مرجع نفسه، ص 45.

التقنية بالولوج في العالم التواصل والمناقشة العقلية، البرهانية، ورأي أن هيدجر لم يميز بين ما هو أداتي ذرائعي منتج للتشيو، وما ساعد الإنسان على تحرر...²⁰، واعتبر أن الفعل التواصل هو البديل لعقلنة الطبيعة، وأسس لصيرورة الاجتماعية وتفاعل الأفراد مجموعة فاعليات لخصها في ما يلي:

أ- **الفاعلية الإستراتيجية:** هي فاعلية تنافسية تهدف إلى قمع أفعال الآخرين، يهدف المشارك فيها إلى التغلب على الآخر بهدف النجاح والسيطرة وقد يحصل داخل الأنساق الاجتماعية بأسلوبها القسري من خلال الترشيذ والمراقبة للإنسان وحياته..²¹ تمثل هذه الفاعلية أسلوب التنافس الذي يسعى للسيطرة والتغلب.

ب- **الفاعلية التواصلية:** التواصل بين الذات الفاعلة، المشاركة البينذاتية في نقاش تداولي....، وهي فاعلية مشاركة.

ج- **فاعلية التأمل والتحرر:** يمثل وسيلة لكشف ظاهرة الأدلجة والانفكاك منها تتحقق بتأسيس لفكرة المجتمع العقلاني وقد تمثل اللغة ونمط الاتفاق والاعتراض...²²، حيث يسعى من خلالها لتأسيس تحرر حقيقي.

يميز هابرماس بين ثلاث أنواع من المصالح، هناك من ينظم العلوم التجريبية وهي مصلحة التقنية أو الأدوات وكذلك مصلحة التواصل، "...المصلحة من أجل التحرر أنها توفر الإطار المرجعي للافتراضات النقدية، باعتبار أن التأمل الذاتي يحزر الذات من تبعيتها للقوى الراكدة، المصالح هي التوجهات الأساسية المرتبطة بشروط رئيسية لإعادة الإنتاج والتكوين الذاتي الممكنين للنوع البشري أي المرتبطة بالعمل وبالتفاعل...²³، كل نمط معرفي يخضع لتوجيه

²⁰ حمدي أبو النور، المرجع السابق، ص 105.

²¹ المرجع نفسه، ص 105

²² المرجع السابق، ص 105.

²³ أفاية نور الدين مرجع سابق، ص 64

مصلحة خاصة، "...ومن أجل الكشف عن المصالح الثابتة وراء كل نشاط معرفي يتعين ممارسة التأمل الذاتي في بعده الاستكشافي النقدي..."²⁴.

اهتم هابرماس بنقد المعارف، وجعل من التأمل الذاتي موضوع ينعكس على الذات "...ليكشف فيها عن مواطن الأدلجة والتشويه واللاشعور المسيطر على الذات..."²⁵، ومهمة فاعلية التأمل والتحرر، الكشف عن هيمنة الأنساق من أجل انعاش مشروع التواصل وتحريره، من أجل تحقيق غايته الإنسانية وهي الفهم وتحويل الفهم إلى وسيلة لتحقيق الإجماع عبر النقاش بين الأفراد، "...وبذلك تمثل فاعلية التأمل والتحرر وسيلة لكشف ظاهرة الأدلجة والانفكاك منها..."²⁶، يقوم هابرماس بإعادة اكتشاف الإنسان مسار العقلانية وإحياء موروث الإنسان الانوارى، فقط ربط بين التواصل والعالم المعيش، كما وظف مفهوم المجال العمومي باعتباره مجالاً للمناقشة والبرهنة فما هي دلالة المجال العمومي، وكيف نميزه عن باقي المجالات؟، "...المجال العمومي موضوعه الجمهور الذي يعبر فيه عن معارضتهم السلطة..."²⁷.

4- المجال العمومي ودور اللغة في زعزعة التعالي الفكري وفتح الحوار مع الآخر

حدد هابرماس دور الإنسان في المجال العمومي، واقترح النموذج الليبرالي الذي يقوم بتكوين الرأي العام، عن طريق المناقشة العمومية، "...هذا النموذج يأخذ في الحسبان تعدد أشكال التواصل التي من خلالها تتكون إرادة جماعية، ليس فقط على التفاهم الأخلاقي للهوية الجماعية بل أيضاً على المعادلة القبلية في المصالح، والضغط القائم على الاختيار العقلاني وفق الحدود النهائية

²⁴ المرجع نفسه، ص 65.

²⁵ علي عبود المحمداوي وإسماعيل مهنانة، المرجع السابق، ص 46.

²⁶ علي عبود المحمداوي وإسماعيل مهنانة، المرجع السابق، ص 226.

²⁷ المرجع نفسه، ص 226.

لوسائل المملوكة من قبل الاثبات الأخلاقي والتجانس...²⁸، حيث تحدد الهوية الاجتماعية النموذج للتواصل ضمن أخلاقياتها الخاصة.

وفق هذا تجاوز هابرماس الأطروحات المرتبطة بالوعي، "...وهنا يصبح التواصل ضرورة علمية لكل تفكير اجتماعي، وقد ربط هابرماس بين التواصل والعالم المعيش المحرك للأفعال التواصلية...²⁹، حيث أن التواصل يستمد مادته من فضاءه المعيش ويستجيب لضروراته، "...إن فكرة العالم المعيش تعني عالم الوجود مثلما يحياها الإنسان يوميا في محيط اجتماعي مقرون بسياق اقتصادي وثقافي، فهو عالم التجربة الآنية كما يعيشه الإنسان وهو عالم يتعلق ببنية الإنسان الثقافية...³⁰، لا يماثل المجال العمومي التنظيم السياسي المهيمن على الإنسان المعاصر.

ربط هابرماس الديمقراطية بنظرية المناقشة والتكوين السياسي للرأي العام الذي يلعب دورا في توجيه السلطة العمومية، "...وهو النموذج الفاعل، المستقل والمسؤول الذي يحدد لنفسه بنفسه، قوانينه الخاصة من غير رجوع إلى سلطة خارجية، ويدعم هابرماس مشروع الأنوار المتمثل في تحقيق النقاش الحر العقلاني، انطلاقا من خاصية الكلية عن طريق الإقناع العقلي لا القوة والقهر، "...إن عمليات الدخول إلى الحياة يتطلب نوعا من الشمولية والكلية ويسمح للأفراد الاشتراك في النقاش لمعايير يؤسسها وعي أخلاقي...³¹. ركز هابرماس على التداولية، فالنشاط الفكري عند الإنسان المعاصر يشكل نظاما فلسفيا لتفسير الفكرة والتمهيد للعمل وتحقيق نتائجها في الواقع المحسوس، فقسم اللغة إلى المخاطب، المتكلم، مضمون العبارة، وما ينويه المتكلم، فأصبحت اللغة تعبر عن الحدث خاضع للمواضعة الاجتماعية، وتستعمل لتمثيل الفكر وإنجاز الفعل.

²⁸ المرجع السابق، ص 229.

²⁹ المرجع نفسه، ص 234.

³⁰ حمدي أبو النور، المرجع السابق ص 194.

³¹ حمدي أبو النور، المرجع السابق، ص 240.

ظل الإنسان الأنواري خاضعا للعقل الأذاتي الذي أنتجته الحداثة فأغرقته في الوجدانية، فاقدة له معنى الحياة وجعلت قنوات التواصل هزيلة، ولم تستطع الأنساق الفلسفية في وصف شمولي للعلاقات البشرية تحريره، "...وخلق البعد التقني للحضارة الإنسانية المعاصرة تشبؤا معرفيا واغترابا...³²، لقد تدفقت ثورة المعلومات التي عصفت بالعلاقات الإنسانية واندثرت على إثرها أواصر التواصل بين البشر، وتبدلت القيم فتحولت فلسفة الوعي إلى التداولية، لتوجيه الإنسان المعاصر، بإرساء قواعد التفاعل الخطابى بتوطيد معاني الذات والتحرر من العقل الذاتى، وتحقيق التفاهم البينذاتى، والحوار الجاد في وصل الأفراد في نسيج اجتماعي متفاعل.

5- امتدادات التواصل في فلسفة كارل أوتو آبل

شرح كارل أوتو آبل Karl-Otto Apel 1922 في إعادة تأسيس الفلسفة الترسندتالية عن كائنات، ودعمها بآليات المنعطف التداولي، "...مند كتابه الشهير تحولات فلسفية واصل آبل الاشتغال وبشكل نظامي على إعادة تشكيل للفلسفة الترسندتالية الكانطية واضعا في الحساب تغيير النموذج، فقد استبدل الوعي الذاتى المكتفى بالعقل وحده بمجتمع تواصلى وتفاعلي...³³، حيث لم يعد الوعي ذاتي وإنما أصبح تفاعليا.

تأثر آبل بإتيقا المناقشة التداولية، وعمل على إخضاع الممارسات الإنسانية للحجة والبرهان "...فالمناقشة الحجاجية باعتبارها شكلا فكريا للتواصل تختص بالعالم المعيش، وعوض آبل أفكار كانط المتمركزة على الذات وملكة الفهم، بنموذجه التداولي المستند على الحوار والحجاج...³⁴، وضع آبل في مشروعه رهان الإنسان المعاصر وما خلفته التقنية في ظروف اجتماعية معقدة في حياته، وضرورة تحمل المسؤولية باختياراته، وهذا تجاوز للفهم الكانطي للأخلاق القابل للاستقلالية واحترام الواجب لذاته فقط، و"...يهدف آبل إلى تأسيس شكل إجرائي يسهل

³² علي عبود المحمداوي، إسماعيل مهناة، المرجع السابق، ص244.

³³ المرجع نفسه، ص 259.

³⁴ علي عبود المحمداوي، إسماعيل مهناة، المرجع السابق، ص259.

انسيابية النقاش والحوار بغرض الوصول إلى نتائج، وأن يكون النقاش حقيقي، واقعي يدور حول مصالح البشر كما هي متجلية في واقعهم الاجتماعي والتاريخي...³⁵، لقد حاول آبل تأسيس أتيقا للأخلاق بعدما كادت أن تفرغ من معانيها السامية تلهث وراء اللذة والسلبية.

يعتقد آبل أن أخلاقية الحوار وأسلوب الإقناع المؤسس على البنية والبرهان، هو الحل الوحيد لتحقيق قيمة الإنسان المعاصر والابتعاد عن النرجسية والأوهام المزيفة والأنانية، "...لقد ظلت الأخلاق تتن تحت تأثير وسائل الدعاية وأشكال التسويق، وأنماط السلوك المرتبطة بنظام الإنتاج الصناعي والرأسمالي التي أضفت على علاقات الناس بعضهم ببعض علاقات حسابية ومنفعية...³⁶، فأتيقا المناقشة تتمثل في "...إن للعقل بنية منطقية تتيح اعتماد البرهان كضرورة لأي تأسيس أو تعيد لما يختاره الإنسان من نظم...³⁷.

يتخذ الحجاج شرطاً ضرورياً مناسباً للزمن الراهن المتميز بانتشار التقنية وسط تضارب الاعتقادات الدينية المتشددة واختلاف الرؤى حداثة، فوجب تحضير الجو الملائم لهذا الراهن، حسب آبل بتأسيس عقل عملي يعمل على إنتاج الحجج المقنعة والمؤسسة "...ففي المناقشة ستتم محاولة الفهم والتفاهم بالمقال والخطاب، بتقديم حجج ومناقشة أخرى وفي هذا المجال نقوم بإنتاج منطوقات أو ملفوظات مقعدة تأخذ شكل اقتراحات، فعندما نقوم في إطار مناقشة معينة بتأكيد شيء معين أو نفيه، فإن ذلك يعني تطلعا منا لامتلاك الحقيقة...³⁸، فلا سبيل لبلوغ الحقيقة الذي استشكل على المعرفة الإنسانية إلا بالحوار، واتيقا المناقشة واحترام الرأي المخالف وعدم طمسه وتحقيره، وبهذا يتحقق الاتفاق والإجماع بين الأطراف المعنية المتخاصمة.

³⁵ المرجع نفسه، ص 262.

³⁶ المرجع السابق، ص 261.

³⁷ المرجع نفسه، ص 261.

³⁸ علي عبود المحمداوي، إسماعيل مهنانة، المرجع السابق، ص 262.

وهنا يتفق آبل مع هابرماس على ضرورة احترام الخطاب التواصليين وذلك وفق شروط معينة تتمثل في المعقولية: إنتاج خطاب تتوافر فيه الصحة التركيبية وتحترم فيه الصحة اللسانية، الحقيقة: أي في المقال ستكون القول عن وقائع حقيقية، المصادقية: تطابق الفعل اللغوي مع مقتضيات مخطط سابق معترف به من طرف المجتمع، الصدقية: التعبير عن مكنون الصدور والمقاصد والنوايا بأسلوب صادق وواضح غير ممزوج بالمداهنة والرغبة في التضليل...³⁹، وبذلك أصبح للحوار شروط فعلية تركز على ما هو أخلاقي بالدرجة الأولى، باعتباره يعكس رهان التواصل الفعلي.

قدم آبل وهابرماس إثراء لنظرية كانط الأخلاقية، وأفرغوها من الواجبات الصورية إلى الفعل، وبهذا حل التواصل والمجادلة مكان القيم الأخلاقية للإنسان الانواري الصورية المجردة، وأصبح سبيلا مثاليا لتحقيق الجوهر العقلي، كما يحقق هذا النقاش الأخلاقي الموضوعية والشمولية لاتخاذ القرارات، بعد التبرير والتعليل وتبادل الحجج اجتنابا لكل عنف مادي ولفظي، واجتناب الاستبداد السياسي والفردية.

6- اللغة ودورها في تحقيق التواصل

لقد اهتم هابرماس وآبل بتقويض فلسفة الوعي بأسس فلسفية لتواصل البنيداتي، فالمعنى لا تنتج ذات واحدة، وبهذا يحتاج العقل النظري والعملي في ما بعد الحداثة إلى تبادل وجهات النظر بين الأنا والآخر، فخيرتنا بالآخر خبرة لغوية وليس فعلا ذاتيا، وفهم الآخر ليس التلاعب والسيطرة بل المشاركة والانفتاح، فاللغة تمثل أرضية المشاركة بين الذات والفرد يجد تعبيره الكامل القابل للفهم موضوعيا، "...فالتواصل البنيداتي يمثل القاعدة لعملية التشارك والتعاون الاجتماعي وذلك عبر وسيط اللغة في السجلات والنقاشات...⁴⁰ كما عوّض آبل الشروط الترنسنتنالية القبلية

³⁹ المرجع نفسه، ص 263.

⁴⁰ المرجع السابق، ص 263.

بالشروط التداولية الترستندنالية وهذه الشروط حصيلة التذوات، " ... فاللغة هي الوسط الذي تشارك فيه المعاني فتعبر عن ذاتية الفعل والتعاطف وتبادل المشاعر، وبهذا تتوطد صلة الفرد بالآخر دون ضغط بغية تشكيل لحمة النسيج الاجتماعي، وفق نموذج اتيقا المناقشة باستلهم من العقلانية التتويرية الأصلية، كما تصورها المشروع الحد اثوي في الغرب...⁴¹ .

تضائل وجود الإنسان الانواري الذي ردّ كل الكائنات إلى مقاسه كونه مصدر التصورات، وهو الناطق والمتمثل لكل موجود، فظهر تيار فلسفي يقوم على الاختلاف والتغاير، وتشخيص واقع الإنسان المعاصر وتطوير أنماط جديدة من الأفكار كالانفصال بدل الاتصال، التكاثر بدل الاختزال فأحييت هذه الآراء الإنسان وأضاءت تفكيره، بعدما شلته ميتافيزيقا الذات التي كانت تخضع كل شيء لنظام قيمة ذاتية، لقد انتقد فلاسفة الاختلاف، الانعكاسات السلبية لمشروع الحداثة، وبسط التقنية على حياة الفرد، واعتبار الكائنات كما لو كانت أرقاما في المصنع فتحولت الفلسفة إلى كلام مقال، وظهرت كتابة جذرية ردا على فلاسفة الأنساق، التي فرضت تصوراتها الكلية على الأشياء والأفكار وعملت على تجميع المفاهيم المتناقضة، وأصبحت ذات الإنسان يعيش انقساماً وشرخاً بعدما كانت موضوع للملاحظة العلمية والدراسة العقلانية، فالإنسان يعيش التجربة ويتواصل مع الآخر، ويفهم الآخر في تموضعاته.

اختلف فلاسفة ما بعد الحداثة مع هابرماس مثل ليوتار الذي يرى " ...إن المعايير التي تنظم دعاوي الحقيقة المعرفية مشتقة من ألعاب لغوية تعتمد على السياق، ويولي نموذج الرئيسة أولوية للإجراءات التي تميز المعرفة الذاتية...⁴²، إن العلم بعد الحديث يتبع الأهداف التقنية والتجارية للأداء الأمثل، وهو نشاط المغالطة، وهكذا يظهر مصدر جديد للشرعية يتم استثماره في أنماط قصصية.

⁴¹ علي عبود المحمداوي، إسماعيل مهنانة، المرجع السابق، ص 263.

⁴² عطيه أحمد عبد الحميد، ليوتار وما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 11.

كما نجد ليوتار ينتقد مشروع هابرماس بالرد عليه في 1980 في مقال " الحداثة مشروع لم يكتمل..." فقد هاجم فلاسفة ما بعد الحداثة العقل ونظروا إلى فكرة الإنسان ومفهوم الذاتية على أنها ما هي إلا نزعة أنوية، وحفاظ على الذات وعلى الجانب الآخر دافع هابرماس عن العقل تحت مسمى العقلانية التواصلية...⁴³، اعتبر ليوتار أن كل النظريات ما هي إيديولوجيات تضفي الشرعية على الوضع الراهن، وإن نظرية هابرماس شكل مزيف لفكرة يقدم الإنسانية نحو التحرر والانعقاد فما هي إلا فلسفة سردية، ويقسم ليوتار النظريات إلى نوع قصة تحكي كيفية التحرر والثانية تسرد تحرر الفرد من قيودهن "... وقد حكم ليوتار على فلاسفة التاريخ بأنها ميتافيزيقية إضفاء نظام منطقي ونسقي على الأحداث لتثبيت سيرها نحو غاية مثالية...⁴⁴.

الخاتمة

فالعودة القوية للغة كوسيلة للتواصل والاتصال لا يمكن فهمها بمعزل عن التحولات الثقافية. في زمن العولمة التي تسعى لاكتساح عالم الرموز. وبما أن الفرد هو فاعل اجتماعي له دور في تحقيق التفاعل فهو يستعمل موارده اللغوية لكنه يعيد بنائها باستمرار لأنه ليس هوية في ذاتها ولذا لها بل في علاقة دائمة مع الآخر. ومن هنا يأتي التفكير في تكريس أسس التواصل حتى نتجاوز الانغلاق الذي يقذف بالآخر إلى خارج حدود الإنسانية. وينبغي فهم اللغة ومشروع التواصل في معنى انطولوجيا. فالقول والبلاغ والإعلان عن الإخبار هي مشاركة في التواصل مع الغير وفهم شعوره ومعاناته أي فهم الوجود مع الغير وذلك وبهذا يتحقق التفاهم من حيث هو مجموعة من الأفعال المعرفية – الاجتماعية تستند إلى شروطه وهي الرموز والسنن. وتعتمد على العقل والنقد والتواصل الإنساني كفيل بإخراج الهوية من الانغلاق إلي أن يفقدها حقيقتها ويبعدها عن التصادم. فالتواصل هو الذي يمكننا من التمتع في العالم واحترام الغير ومراعاة وضعية الذات والتفتح على

⁴³ عطية أحمد، المرجع السابق، ص 168.

44 المرجع السابق، ص 171.

التغيرات وكما يقول ادغار موران "فالاتصال بالآخر هو خامة وجود الذاتية، وبيئة وجود الشخص وبدونها يهلك"⁴⁵.

المراجع

- عمر مهبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر ديوان المطبوعات الجامعية ط2 1993
- محمد عابد الجابري، في غمار السياسة، فكرا وممارسة، الشبكة العربية للابحات والنشر، علي مولا ط1، 2010
- المحمداوي علي عبود، الدكتور اسماعيل مهنانة، مدرسة فرانكفورت النقدية
- هابرماس يورغن، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، منشورات الجمل، ط1 2001، ص230.
- حمدي أبو النور، يورغن هابرماس، الأخلاق والتواصل، السوبر للطباعة والنشر والتوزيع، 2012، ص86.
- ادغار موران، النهج انسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة ابوظبي للثقافة والترات ط12009 ص94

45: ادغار موران، النهج انسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة ابوظبي للثقافة والترات ط12009